

# ثورتنا العربية في الجزائر

بقلم ناجي علوش

هكذا ولدت ثورتنا العربية في الجزائر  
تصورا كاملا لحياة الرسالة  
وخروجنا كلياً على حياة الزيف ، يرتبط بوحي ثوري لقيمة  
« الانسان والتراب والوقت » عناصر « الايدولوجية العربية  
الجديدة » .

وهكذا استطاعت ثورتنا العربية في الجزائر ان تكشف  
عن انسان الرسالة الجبار .

فمنطق الثورة العربية في الجزائر اذن هو الانقلاب  
الشامل الذي يعني ان استعداد الفرد نفسه للتغير ، لان  
يعيش حياة التنظيم الحزبي في مرحلة الاعداد ثم لان يحمل  
السلح ليبدأ معركته الكبرى . . معركة الانسان الجديد .  
ولقد عاش شعبنا معارك السلاح ولكن على شكل بطولات  
اسطورية ابتدأت بالامير عبدالقادر وانتهت بالامير عبد  
الكريم الخطابي بطل الريف . ولكن هذه البطولات الناتجة  
عن النظام القبلي لم تكن كافية لتأهيل شعب ليؤدي  
رسالة تاريخية وان كانت أهله للقيام برواية حماسية  
حسنة ( ١٩ ) لا يبحث فيها الفرد عن البقاء بل عن الخلود ،  
انها تهوية البطولة التي تجعل الحياة مجرد رواية دينية  
حاسمة ( تتمثل في جراءة فرد ، لا في ثورة شعب وفي  
قوة رجل لا في تكاثف مجتمع فلم تكن حوادثها تاريخاً بل  
كانت قصصاً ممتعة » ( ٢٢ )

وقد ظل التاريخ مكانه فلم يسجل الا هذه البطولة ، الى  
سنة ( ١٩٢٢ ) قبل هزيمة ثورة عبدالكريم الخطابي لخمسة  
اعوام « ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن  
باديس » فكانت تلك ساعة اليقظة وبدأ الشعب المخدر  
يتحرك وبإلها من يقظة جميلة مباركة ! يقظة شعب ما زالت  
مقلته مشحونتين بالنوم فتحولت المفاجأة الى خطب  
ومحادثات ومناقشات وجدل وهكذا استيقظ المعنسى  
الجماعي وتحولت مناجاة الفرد الى حديث الشعب فتساءل  
الناس : كيف نمنا طويلاً ؟ وهل استيقظنا حقاً ؟ وماذا يجب  
ان نفعل الان ؟ ( ٢٣ )

ونتيجة لهذا الوعي فقد بدأت تتسرب الافكار والنظريات  
التي ما تلبث « ان تنفجر شأن فقايع الهواء على سطح  
( الغلاية ) او ان تتحول مباشرة من حالة الجمود الى حالة  
التبخر والشيوخ في صورة مدرسة او مسجد ، او مؤسسة  
اصلاحية » ( ٢٤ ) وكان من بين هذه العقائد - على الرغم  
من انها كلها كانت تعني محاولة الحركة والتجديد - حركة  
الاصلاح بقيادة ابن باديس زعيم العلماء الجزائريين والتي

اذا كانت جذور الثورة الفرنسية موجودة في كتابات  
« هوغو » و « روسو » و « ديدرو » فان « نظرية » الثورة  
العربية في الجزائر موجودة في كتابات الفيلسوف مالك  
بن نبي ، هذا المفكر الاديب الثوري العظيم الذي تلمس  
الثورة في كل كلمة من كلماته .

وانا هنا اعرض شيئاً من افكاره ملخصة عن كتابه  
« شروط النهضة ومشكلات الحضارة » مبتدئاً من الثورة  
الجزائرية نفسها لصلتها الوثيقة بها ( ١ ) وسأعرض لهذه  
الآراء ولغيرها مما لم اعرض له بالنقد والتحليل في مقال  
آخر » ( ٢ ) .

لقد دخلت الثورة العربية في الجزائر عامها الرابع ، وليس  
غريباً ان يكون كل يوم من ايامها ميلاداً حضارياً عظيماً . . .  
وان تكون كل ساعة من ساعاتها تفتحاً انسانياً خلافاً ، فهي  
ثورية شعبية تعي حقيقة العمل النضالي ، وتؤمن بالانسان ،  
انسان الرسالة .

وهي بذلك ليست رصاصاً فقط ودماً فقط وتمرداً  
وتشرداً فقط ، وهي ايضا ليست هجراناً لقرى ومنازل  
ومدن وتخلصاً من علاقات وارتباطات فحسب لانها الرفض  
المطلق لعالم بأجمعه ، بكل تفاهته وخسته والخروج الى  
فضاء العمل الثوري . . الى حيث يصبح الانسان انساناً .  
وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها ان نعيش الرسالة  
وان نبذل الرسالة .

لقد بدأت رسالة الاسلام بالهجرة ، وبدأت رسالة  
الصين « بالمسيرة الكبرى » وتبدأ رسالة الامة العربية  
من كهوف الجزائر والجبل الاخضر ومخيمات اللاجئين ، من  
الهجرة . . . من الانتقال الذي لا بد منه والذي تتحقق به  
ممارستنا للثورة .

ليس شيئاً ان تدك القنابل بيوتنا وان تحرق بسايننا  
وان تمزق نساءنا واطفالنا وآباءنا وامهاتنا ، ليس شيئاً ان  
يبقى العلوج ارضنا قاعاً صفصفاً . فان فينا ، في عروقنا  
دفعاً عالم جديد يلوح لنا قرى ومدناً ومزارع واطفالاً واخوة  
ونساء سعداء في ابتسامة كل شهيد . اننا نحن في هذه  
الكهوف . . . في حياة التشرد هذه مادة السمو الجديد  
وعرق نزوعه الخلاق .

ولن نكون اكثر انسانية منا حين نعود الى انفسنا لنجعل  
منها غير ما كانت ولنرتفع بها من مستنقع تفاهة الحياة  
اليومية ، حياة الزيف والتمرغ والتسكع الى حياة الخلق  
والثورة .

تبنت منهجا قائما على اساس « ولن يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » هذه الآية التي استمدت الحركة من روحها ثورية توحى بضرورة التغيير .

ولكن هذه المبادرة الرائعة لم تستطع ان تستمر فسي مجلراتها لما تستأزمه نقطة انطلاقها فتحدد اهدافها وطرقها التي لا بد منها ليتجاوب معها الشعب التجاوب العميق وكان من نتيجة ذلك ان انزلت الى مستنقع السياسة في سنة ( ١٩٣٦ ) فاشتركت مع الفئات الاخرى في مفاوضات عادت بالقضية الى هذيان حاقة مفرغة .

لقد بدأت حركة الاصلاح من الانسان ، من ضرورة انقلابه على نفسه ليستطيع ان يغير الواقع ولكنها اندفعت اخيرا بطيبة الى الهاوية ، هاوية الوثنية ، هاوية الجاهلية . الى حيث اصبحت السياسة وريثة « الدروشة » فاصبحت الحناجر تردد هذه الكلمات « اننا نريد حقوقنا ولو مع جهلنا وعريتنا وسخنا » ( ٣٨ ) بعد ان كانت تردد قائلة : ان الله لن يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والفرق ما بين القولين شاسع وواسع ، فالاول هتاف لاهت والثاني فلسفة ثورية .

« ان جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية ونحن لا زلنا نسير ورؤسنا في الارض وأرجلنا في الهواء وهذا القاب للاوضاع هو المظهر الجديد لمشكلة نهضتنا » ( ٣٩ ) .

وعلى هذا فالمشكلة لا يحلها الترقيع غير المنهجي ولا التكديس . . . تكديس اشياء الحضارة الغربية في كل مكان من ارضنا ، انما بالدراسة الواعية والتنهيج العلمي الذي يكفل تكون المجتمع وتطوره ونموه . وهذا النمو يجب ان يكون قائما على اساس ان « الحضارة = انسان + تراب + وقت . انسان يفكر ويعمل مفجرا امكانياته فيما هو منتج وخلاق ، وتراب يولى العناية فتستغل كل ثرواته استغلالا يخدم تفجير هذه الامكانيات ، ووقت تعرف قيمته فتملا كل لحظة من لحظاته بما هي جديرة به ، في حدود تخطيط اجتماعي كلي .

وبما ان الانسان بحاجة الى حالة خاصة وشروط خلقية وعقلية حتى يستطيع ان ينشئ ويبلغ حضارة فقد كان من الضروري معرفة خصوصية المشكلة بالنسبة لنا ومعرفة الحقيقة القائلة بأن الانقلاب يبدأ من الانقلاب على النفس .

ومادة هذا الانقلاب هو رجل الفطرة « الذي عندما يتحرك ويأخذ طريقه لكي يصح حضارة فانه لا زاد له - كما بينا - سوى التراب والوقت وارادته لتلك الحركة » ( ٦٧ ) « فتلك هي القيمة الخالدة التي نجدها كلما وجب علينا العودة الى بساطة الاشياء ، أي في الواقع كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ » ( ٦٨ )

وهذا الرجل الذي يعيش العدم غير « رجل النصف » الذي تغلفات في نفسه دواعي الانحطاط « فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه وقد عاش حياته دائما في منتصف طريق وفي منتصف فكرة وفي منتصف تطور ، انه ليس

نقطة انطلاق ولا نقطة انتهاء ، انه « نقطة التعليق » والتأرجح في الحضارة ، انه « رجل القلة » « الذي دخل في ميدان فكرة هي الاصلاح فمسخها نصف فكرة وأطلق عليها اسم السياسة لانه لم يكن مستعدا الا لنصف جهد ونصف اجتهاد ونصف طريق » ( ٧١ ) ان هذا الرجل قليل يمثل القلة في كل شيء ورب عدم خير من قليل .

وما دام انسان القلة هذا يحاول ان يعطي القضية معناه . . ان يمسخها ، فقد وجب علينا ان نضع امامنا المشكلة باكملها وأن نأخذ باعتبارنا ، على الاخص ، عنصرها الاساسي الرجل ، ويازمنا اولا ان نفهم كيف يؤثر الانسان في تركيب التاريخ » ( ٧٢ ) .

طرح القضية على هذا الاساس الثوري يجعلنا نؤمن بأن الانسان يؤثر في مجتمعه بفكره وعمله وماله وعلى هذا الاساس نفسه تصبح قضية الفرد منوطة بتوجيه (١) الثقافة (٢) العمل (٣) رأس المال .

والتوجيه ليس الا « قوة في الاساس وتوافقا في السير ووحدة في الهدف » فهو بهذا تجنب « للاسراف في الجهد وفي الوقت » وضمان لسير التاريخ نحو الهدف المنشود . وهو يعني شيئين ( أ ) سلبية تفصلنا عن الماضي ( ب ) ايجابية تصلنا بالحياة الكريمة ، ويستلزم بالضرورة « تحديد محتوى العناصر الجوهرية للثقافة » وهي اربعة : الدستور الخلقي ، الذوق الجمالي ، المنطق العملي ، الصناعة .

والثقافة من خلال هذا التحديد ليست فلسفة الفرد كما يقول فلاسفة الغرب وليست فلسفة المجتمع كما يقول الماركسيون « فهي نظرية في السلوك اكثر من ان تكون نظرية في المعرفة » ( ٧٨ ) وهي بهذا ( مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال اولي في الوسط الذي ولد فيه » ( ٧٩ ) .

وهكذا تصبح الثقافة فلسفة الفرد وفلسفة المجتمع او الجماعة لانها فلسفة الثورة .

ولكن عدم تحديد موقفنا السلبي والايجابي جعل من ثقافتنا ، ثقافة رجل القلة تعالما اقسى من الجهل لانه جهل حجرته الحروف « الابدية » وسبب ذلك ان رجل القلة لم ير في الثقافة الا مطامعه وحاجاته . فالعلم ليس الا وسيلة للعيش وسلما الى منصة البرلمان وهذه هي « تهتهة المريض » .

ولكي نعيد للثقافة مستواها ومحتواها فان علينا ان ندرسها كعامل تاريخي لكي نفهمها ثم كنظام تربوي تطبيقي لنشرها بين جميع فئات الشعب . وهي كعامل تاريخي « كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة » « من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة وتقاليد متكاملة واذواق متناسبة وعواطف متشابهة » ( ٨٣ ) .

ولن يكون للثقافة محتوى أن لم تعط معنى اخلاقيا للصلات الاجتماعية يجعلها تضمن تماسكا من مستوى حياة الرسالة وهذا بالاضافة الى الروح الجمالية والمنطق العملي الذي

ينظم الفعاليات وينسقها ، وسيلة الانقلاب ومنطق الثورة الانقلابي .

ثم ان تحديد موقفنا من الانسان يعني بالضرورة تحديد موقفنا من عمله ورأسماله . وعلى الرغم من ان العمل ليس عنصرا اساسيا كالرجل والتراب والوقت وعلى الرغم من انه ليس موجودا عندنا الان فان الحديث عنه ضروري وهام « فالعمل وحده هو الذي يخط مصير الاشياء في الاطار الاجتماعي » ( ٩٨ ) .

وتوجيه العمل هو سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء . » ( ٩٨ ) .

« ويجب ان يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك ، كسب العيش لكل فرد » ( ٩٩ ) .

ولا شك في ان الذي يهمننا الان ليس الا الناحية التربوية فالكسب لن يكون ويجب الا يكون الا بعد تقسيم العمل . ثم ان توجيه العمل يقتضي بالطبع توجيه « رأس المال » والتخطيط لاهدافه الاقتصادية . وطبيعي ان تكون مشكلتنا في هذا المضمار مغايرة لمشكلة رأس المال في « أوروبا » ولنظرية « ماركس » التي لم تتعرض له كآلة اجتماعية الا بمقدار ما تتحكم به طبقة من الطبقات ومن ناحية النتائج السياسية المترتبة على ذلك .

كان الحديث في كل ما مضى عن الانسان ، العنصر الاساسي في كل ناتج حضاري ولكن هذا الانسان مرتبط بالتراب ، بالارض وللارض بذلك مشكلة هي من مشكلة هذا الانسان .

ولا شك ان الانسان هو الذي يعطي للارض قيمتها وذلك باستغلالها استغلالا سليما واعيا ، وصيانتها .

وأية نظرة بسيطة كفيلة بأن ترينا قيمة ارضنا الحقيقية والمرتبطة بالوضع الراهن للانسان العربي . ان الرمال تزحف على تونس والجزائر ومراكش وليبيا فتأكل الاخضرار وتحف بالمدن والقرى وكذلك هنالك ملايين الهكتارات التي لا تستغل في العراق وسوريا ومصر والتي بدأ يسوء اغلالها بسبب سوء الاستغلال والاهمال وعدم اتباع أية من الوسائل العملية .

هذا عدا الثروات التي لا تستغل او التي يستغلها المستعمرون وعملاؤهم لمصلحة الاستعمار والرجعية .

ولن يكون العنصر الثالث - وهو الوقت - اقل اهمية من التراب فنحن ما زلنا لا نعرف قيمة الزمن . . . قيمة الدقيقة على الرغم من صلتها الوثيقة بالتاريخ ، اننا ما زلنا لا نعرف التحديد لاننا لا نعرف التخطيط ، وبذلك فاننا لا نعرف معنى « المدة » الحقيقي ، فالمدة عندنا مرتبطة بمأساة العدم وهكذا يضعف الزمن منا كما يضعف الماء من ساقية خربة كما يقول ابن نبي .

ومع هذا كله تأتي مشكلة الاستعمار الذي يحرف

منهجيا معادلة الفرد المستعمر باستخدام انواع متعددة من العراقيل يصادفها الفرد في طريقه ( ١٤٥ ) وعلى الرغم من ان هذا اعتبار خارجي بمعنى من المعاني فان هنالك اعتبارا آخر وهو روح القبول او المهادنة التي تبدو في الفرد فتجعل منه وسيلة لمآرب الاستعمار في مقاومته لاية حركة ثورية او ترفع انساني يقف حاجزا بين الاستعمار ومصالحه وبهذا تكون « القضية عندنا اولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في انفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر او لا نشعر ، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية وتبديدها وتشتيتها على ايدينا فلا رجاء في استقلال ولا امل في حرية مهما كانت الاوضاع السياسية » قال احد المصلحين : « اخرجوا المستعمر من انفسكم يخرج من ارضكم » ( ١٤٨ ) .

ان اشكالا من التربوي والسلوك بدأت تتسرب الى بيوتنا وعقولنا ، وشهارعنا . . . الى كل شيء عندنا وهي تظهر في تناقضات « تدل على نزعات متباينة واستعدادات فردية متنافرة في مجتمع فقد توازنه القديم وبيحت الان عن توازن جديد ( ١٥٢ ) واننا لنشاهد هذا التناقض فسي تصورنا للاشياء وفي اضطرابنا امامها .

ونحن لذلك كله لا بد ان يكون سيرنا علميا عقليا فالحضارة ليس اجزاء مبشرة ملفقة ولا مظاهر خلافة وليست ناتج تحرك عنصر واحد او عامل واحد ، بل هي « جوهر ينتظم جميع اشكالها وافكارها وروحها ومظاهرها وقطب يتجه نحو تاريخ الانسانية »

وان قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه ازالة التناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم وذلك بتخطيط ثقافة شاملة للجميع ، تستهدف مناحي الحياة كافة وتضمن الاستقرار والاطمئنان لكل مواطن في حياته الجديدة .

اني لاسمع من خلال الرماد والاطلال والحطام ومن ازيز الرصاص ودوي القنابل هذا الصوت الواثق بالنصر، الدافئ بحرارته يشدو . . . يقول : « وهناك حيث تهدد الصحراء وجودنا وحيث لا نمك في ايدينا سوى العناصر الثلاثة سيري العالم ازدهار حياتنا من جديد ، هنالك حيث يخيم الجهل والفقر سيشهد الناس سيطرة الصناعة والفسن والعلم والرفاية » ( ١٣٦ ) .

انه صوت الثورة الذي يتعالى على صخب السلاح وشخير السدم . .

انه دفؤها الذي يعود الى الربوع التي تلتهم الرمال اخضرارها ربيعا وغلالا .

## ناجي علوش

كويت

١ كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة .

ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي . الطبعة الاولى ١٩٥٧

٢ - انسان ابن نبي ليس عربيا ، انه مسلم اسوي افريقي . ولهذا يكون ابن نبي ثوريا في منهجيته فقط .